اثر قديم

للملك يوستنيان في بيروت

للاوبن لويس شيخو وزميله موتزد اليسوعيين

١ تاريخ الحفريات

بينما كانت بلديّة بيروت ساعيةً في سنة الحرب الثانية في اتمام اوامر الوالي عزمي بك فتنسف الاحياء العتيقة التي كانت عشّشت فيها جراثيم الاوبئة لتفتح فيها شوارع جديدة اذ وقف العمّلة على آثار بناء قديم موقعهُ غربيَّ جامع النبي يحيى على مسافة نحو ٥٠ مترًا منهُ عند مدخل سوق البزركان . فاستدعى الوالي الاب لويس شيخو والمرحوم مراد بك البارودي ورغب اليهما ان يفحصا تلك البناية ويقدّما لهُ تقريرًا في وصفها وتاريخها

فكان اوّل ما طلبهُ المندوبان بعد معاينة تلك الآثار الجليلة ان يأمر الوالي مهندساً برسم صورة البناء على طريقة علميَّة مدقّقة تمكّنهما من درسهِ وابداء رأيهما في اصلهِ وماهيّتهِ وغايتهِ لكن الوالي لم يُجب الى ملتمسهما فجاء فحصهما للآثار غير وافٍ بالمقصود

ودونك ما تراهُ وقتئذٍ عن البناء المكتشف والآثار التي وُجدت معهُ : البناء المذكور على شكل مستطيل طولهُ نحو ثلثين مترًا في عرض اثني عشر مترًا اما علوّهُ فلم تسمح أطلالهُ المتراكمة من معرفته . وكانت ارضهُ مبلّطة بالرخام على عمق نحو خمسة امتار من سطح شوارع المدينة وكان اكثر الرخام مكسّرًا محطّماً بسقوط اعالي البناء عليهِ . وقد وُجد امام الباب القبليّ عمودٌ من الرخام قطرهُ نحو ٥٠ سنتيمترًا وطولهُ ثلاثة امتار بنيف من الحجر المنيع الذي يدلّ على متانة البناء نظرًا لجسامة حجارتهِ التي يبلغ طول بعضها نحو ذراعين مع مراعاة نسبة عرضها وسمكها

وقد بلغ عدد ما وجد في تلك الحفريّات من الحجارة المنحوتة الضخمة الألوف المؤلفة قدّرها بعضُ العمّال بنحو ثلثين الى اربعين الفاً نُقلت بامر الوالي الى غابة

الصنوبر لبناء حائطه الكبير والى ساحل البحر لتهيئة رصيف جديد

وكان في وسط البناء جدارٌ عموديٌ في وسطه حنيَّةٌ او محراب عرضهُ نحو خمسة اذرع معقود بالحجارة الكبيرة وعلى جانبيه بابان كل منهما معقود بحجارة على شكل قوس الَّا انَّ قوس الباب الاسفل كاد ان يكون مسطَّحاً . وكان الداخل الى هذا البناء من الجهة الشرقيَّة يصل اوَّلًا الى رواق على شكل قبو معقود بالحجارة يمتدّ الى البابين المذكورين المسدودين بالردوم

وتحت هذا البناء طبقة اخرى من الاقبية الواسعة الارجاء المعقودة بالحجارة الرمليَّة لم يمكن معرفة عددها وامتدادها . ومنها يُستدل على انَّ ارض المدينة كانت سابقاً اوطأ جدًّا ممَّا هي عليه الآن وربَّما كانت تقريباً على سواء شاطئ البحر المواجه لها . وفي تلك الابنية آثار ظاهرة لحريق لعلَّهُ كان سبب سقوطها

وقد وُجد على خلاف ذلك جملة من العاديَّات المحطَّمة كالحرفيَّات وقطع الزجاج الملوَّن والنقوش ورؤوس الاكلَّة والسواري المختلفة الحجم بينها سارية منقوش عليها صورة رأس كرأس الجنيَّة مدوزة (Méduse) وكان على سارية اخرى صليبٌ ناتئٌ من الشكل البوزنطي المربَّع

وممَّا وُجد قريباً من تلك الاطلال الكتابة اليونانيَّة الآتي وصفها

٢ وصف الكتابة اليونانية

هذه الكتابة مصونة اليوم في مكتب البنات الواقع بجوار حوض (حاووز) الوالي وهناك بعض قطع غيرها ستدخل في متحف الآثار البيروتي وهي محفورة في حجر من الرخام الابيض ذي عروق كمدة عرضهُ متر وستمتران وعلوُّهُ ٥٩ س في سمك ٤٣ س . وهذه صورة ما بقي منها

ΜΑΡΘΑΝΙΟΥ
CΤΡΑΤΗΛΑΤΟΥ
. . . ΛΑΤΑΕΤΙΙ
. . . ΤΙCΜΑΤΑ
. . . . . .

والكتابة واضحة لا مشكل في قراءتها تحتوي دعاء بطول العمر لاحد القوَّاد

المدعو مرثانيوس مع ذكر تاريخ البناء ودونك تمامها

Μαρθανίου στρατηλάτου[πολλὰ τὰ ἔτη. Τὰ κ]τίσματα ! [ἐγένετο ! ἔτους !]

تعريبها : « سنين عديدة لمرثانيوس القائد. البناء. (؟) [قد شُيِّد ؟ في السنة ؟]

اخصُّ ما في هذه الكتابة اسمُ العلم المذكور فيها ثم ذكر البناء المشار اليه

اما العَلَم «مرثانيوس القائد» فهو المعروف ايضاً باسم مرثانيس (Μαρθάνης) كان احد كبار الدولة على عهد يوستنيانوس القيصر واليه وُجِّه هذا الملك سنة ٥٥٨ م احد مراسيمه الموسوم بالعدد ١٤٢ والمعنون هكذا باسمه (١ Μαρθάνῃ κόμητι περιβάτων اي «مرثانيس وكيل الاملاك الخاصة» وكان الحرف η والحرفان ει يلفظان في ذلك العهد كحرف i فمرثانيوس اذن ومرثانيس اسم واحد مع اختلاف صورتهما

وقد اثبت العلّامة الماني (Alemanni) حارس المكتبة الواتيكانيّة انّ مرثانيوس المذكور هو الذي ورد اسمهُ في تاريخ بروكوبيوس السرّي (٢ بصورة مَلثانيس (Μαλθάνης) وجاء في اعمال مجمع مضيحة المعقود سنة ٥٥٠ بلفظهِ اللاتيني والقابهِ هكذا :

Marthanius, vir magnificus, comes domesticorum

وقد حضر ذلك المجمع باسم الملك يوستنيان (٣ . ومن هذا يظهر انّ مرثانيوس المذكور في الكتابة البيروتيّة كان رجلاً معتبراً بحيث دُعي «بالرجل الشريف» (Vir magnificus) - وجعلهُ الملك رئيساً على جيشهِ الخاص (Comes domesticorum) . والحقُّ يقال انّ مرثانيوس هذا كان جندياً رابط الجأش مخلصاً في خدمة سيّدهِ لا يأخذهُ في تتميم اوامره لومة لائم ولو تجاوز فيها الحدود

وقد اخبر المؤرخ بروكوبيوس انّ الملك ارسلهُ في السنة ٥٥٠ م الى وطنهِ قيليقية ليخمد ما حدث فيها من الفتن . وكان للمدن في ذلك الزمان احزاب تتألّف من فرق فرسان الميادين يشبهون في عهدنا احزاب الفرق السياسيّة وربّما اثاروا المشاغب وهيّجوا الشعب . فلمّا وصل مرثانيوس الى طرسوس شغب حزبُ الميدان المعروف

---

١) اطلب Justin. NOV. CXLII وهذا العنوان يونانيُّ الصورة لاتينيُّ الحقيقة Comes [rerum] privatarum

٢) اطلب Procope : Hist. Arc., *XXIX*, *Dindorf. pp.* 159-160.

٣) اطلب دستور المجامع للماني (Mansi, IX, col. 274 seqq.)

بجزب الزُرق ولم يرض ببعض التدابير التي اتخذتها الحكومة فامر مرثانيوس جنودهُ في سحر اليوم التالي ان يسيروا في انحاء المدينة وينهبوها فأخلد الناس الى السكون

فهذا هو مرثانيوس الذي ورد اسمهُ في كتابة بيروت المكتشفة حديثاً . وكان قد نال منذ سنة ٥٥٠ رتبةً جديدةً دوَّنتها كتابتنا فدُعي بالقائد (στρατηλάτης) وعُرف بذلك مدَّةَ وزارهُ في السنة ٥٥٨ قد اصاب اشرف مناصب الدولة فيُدعى رئيساً على املاك القيصر الخاصة (Comes rerum privatarum) . ومنهُ يُستدلّ على تاريخ الكتابة البيروتية اعني بين السنتين ٥٥٠ و ٥٥٨

فبقي تعريف البناء (κτίσματα) المشار اليهِ في هذه الكتابة فكان لمرثانيوس فيهِ حصَّة هو وجيشهُ كما يظهر فخلَت الكتابة دلالةً على شكر المدينة لهُ . ولكن ليس هنا لنا دليل كافٍ لنبتّ حكماً في ذلك . لان البناية التي اكتُشفت غربيَّ جامع النبي يحيى قد طُمرت دون ان يؤخذ رسمها كما سبق والمرجَّح مما قدَّمنا في اوَّل هذه النبذة انها كانت كنيسةً ملكيَّة (basilique) أُقيمت بعدئذٍ بقربها كنيسة مار يوحنا المعمدان بهيئة الفرسان المعروفين بالاسبتاريين او فرسان مار يوحنا الاورشليميّ وهي التي حوَّلها المسلمون بعد ذلك الى جامعهم الحالي . ولعلَّ تلك الكنيسة الاولى كانت سقطت بفعل الزلزلة الهائلة (١ التي الحقت بيروت بالدقعاء في ١٦ تمُّوز من السنة ٥٥١ وقد انسحب وقتئذٍ البحر عن المدينة واحترق جانبٌ منها وخربت مدرسة حقوقها الشهيرة فجاءت الاوامر باصلاح الخراب وتشييد الابنية المهدومة فكان لمرثانيوس فضلٌ اما في بنائها الاصلي واما في ترميمها بعد خرابها اوجب على بلديَّة بيروت شكرهُ فخلَّدوا ذلك بحفره على حجر الرخام ليُعرض في واجهة تلك الابنية فجاءت بعد ذلك زلازل غيرها وشبَّ سنة ٥٦٠ حريق التهم معظم البلدة فلم يبق من تلك الآثار الَّا بعض الدفائن التي استخرجتْ منها شيئاً حفريَّاتُ سنة ١٩١٦ ولعلَّ اعظمها فائدةً الحجر الذي حاولنا نشر مضامينهِ

---

١) اطلب مجموعة الآباء اليونان لمين - Fragm. Tusc., P. G., LXXXV, 1822 seqq
وتاريخ ميخائيل الكبير Chronique de Michel le Syrien, II, 245.